

## الدعوة إلى الله

أطلق القرآن على أداء الرسالة وإبلاغ الدعوة مصطلح الدعوة إلى الله، أى دعوة الناس إلى الله سبحانه وتعالى وربط علاقة الإنسان بخالقه وربه تعالى. ومفهوم الدعوة إلى الله هو إخبار البشر وإنبائهم بطريق راشد لهم في الحياة الدنيا، مرضي من الله، وهو العبودية لله وحده. فهناك طريقان للحياة في هذه الدنيا لا ثالث لهما. أحدهما منتهج رباني، وآخرهما منتهج نفساني. ففي المؤخر ذكره يجعل الإنسان نفسه غاية لسائر تصرفاته، يسير وفق رغباته ويتبع هواه ويعتقد سعادته في قضاء شهواته والذهاب مع ميول نفسه. وعلى عكس من ذلك في المنهج الرباني يجعل البشر الله مركزاً وغاية له يتبع هداياه ويجعل كافة توجهاته وتصرفاته

1

هو إيقاظ الروح الكامنة في الإنسان، والتوصل به إلى هدى الصراط المستقيم وإيجاد البصيرة في نفسه، التي بها يرى في الكون وما فيه من الأشياء، آيات الله ويجد الخالق في صورة كل مخلوق له.

الدعوة تجعل الإنسان يتصل بالله مباشرة ويستفيض منه روحياً ويستنير قلبه وعقله بنوره ويتشرب وجوده برحمته. فطريق الدعوة يعيش المرء في جو الآخرة وهو في الدنيا. ويكتشف عظمة الخالق في كل عظام الدنيا. ويجرب نعمة الآخرة في آلاء الحياة الدنيا، وتكاليف الحياة وشدائد الدنيا تذكر له عذاب الجحيم، ومشاهد الدنيا تثير له مشاهد القيامة. فهذا هو المقصود من الدعوة. ويوزن نجاح الدعوة والداعي في ميزان إيجاد الناس كهؤلاء.

يقول الله في القرآن: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾ (التين: 5)

خاضعة لله، يعتقد سعادته في ابتغاء مرضاته وحين يرتحل من الدنيا، يرتحل راضياً مرضياً.

الحياة النفسانية مملوءة برذائل الأخلاق كالحسد والأنانية والكبر، ويعتقد فيها الإنسان أن ما يراه الحق حق وما يراه الباطل باطل. وبإزاء ذلك الحياة الربانية توجد في الإنسان الأخلاق النبيلة مثل التواضع والاعتراف بالغير واحتساب الذات. ففي الأولى إذا كان الإنسان عابداً لنفسه كان في الثانية عابداً لله خاضعاً له.

والدعوة إلى الله إنذار البشر بخطورة مصيره الناتج من الحياة النفسانية ودعائه إلى اختيار الحياة الربانية. والقرآن كمصدر الهي صحيح موثوق به محفوظ، يدلنا على كلا المنهجين للحياة دلالة تامة ويميز بينهما تمييزاً صريحاً. والدعوة عملية أخروية خالصة من نوعها. لاتتعلق مباشرة بالأمور الاقتصادية والسياسية

2

فالدعوة تغرض الرجوع بالمرء إلى حالته البدائية "أحسن التقويم" وإقامته مرة أخرى في طريق الجنة بعد أن أخرج منها. وإيصال المتباعد من الرحمة الربانية من جديد إلى ظلالها الوارفة. وإن مثل الإنسان كمثل الحوت الذي أخرج من الماء وألقي في الصحراء الجرداء فهو في تملل دائم وحين شديد إلى الماء. ومارحمة أجل ولا عطف أكبر من أن يرجع ثانياً إلى الماء. كذلك الإنسان خلق للجنة فلا يزال يشنق لنيل ذلك الهدف المثالي المجهول، ويجري ورائه مرة بعد أخرى ويندفع إلى كل بارق لمام رجاء أن يكون ذلك غايته التي يطلبها، ومثله الأعلى الذي يرنو إليه. فكلما يتسرع إليه يخفق حتى يموت من غير أن يصل إلى مطلبه المنشود، ومن هنا يبدأ دور الداعي. فعلى الداعي أن يخبر الإنسان أن غايته المثلى هو الله فقط وجنته. وإنما

5

والوطنية. وإنما هي حملة دعوية خالصة تدعو إلى الله وإلى فوز الآخرة. تبدأ بهذا الأسلوب الديني والروحي وتنتهي فيه كذلك. وبما أنها عمل إلهي يقوم به البشر فلزم أن تتم بروحها هذه ولاتنفك منها بحال، لأن كل عمل دعوي لا يتسم بهذه الروح لا يكون في الحقيقة عملاً دعويًا وإن تم وسمي باسم الدعوة إلى الله.

والدعوة إلى الله ليست دعوة إلى السياسة والوطنية والأمور المملية. وإنما هي دعوة إلى الله سبحانه ومن اللازم أن تنجز بهذا الأسلوب الخاص. وما هو المراد بالدعوة إلى الله، انها ترمي أولاً إلى إخبار البشر بالمشروع الرباني من خلق الكون. وإلى أن يعرف الإنسان ربه ويعرف عجز نفسه بحذاء القدرة الإلهية ويشاهد ربه قبل أن تخرق ستور الغيب. وأن يعرف الله معرفة غيبية قبل أن يواجهه مباشرة. وغرض العمل الدعوي

3

هو الله الذي إذا وجدته إنسان ارتاح وإنما هي الجنة إذا وصل بها أحد سكن واطمئن إلى نيل مرامه. وانطلاقاً منه فكل إنسان هدف للداعي ويجب أن يصل إلى كل فرد وأن يزيح الستار من كل عين. ويعني ذلك أنه إذا كان هناك في الدنيا ستة مائة مليون نسمة وجب أن يقوم الداعي بستة مائة مليون عملاً. إنه مسئول عن الوصول بهؤلاء الستة مائة ملايين إنساناً بالله تعالى. وهو مسئول عن محاولة إدخالهم الجنة، مثوهم الحقيقي.

وعليه فإن الداعي هو معلم للبشرية، إنه يقوم على مفترق طرق الحياة كمنارة نور. كهادي لقوافل البشرية التائهة إلى الله، ويكون مصداقية لما جاء في القرآن: ﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾ (الذاريات: 50) وتفسيراً لقوله "اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت" (النحل: 36)

6

4

وكل إنسان في هذا العالم بين دعوتين دعوة من الله ودعوة من الشيطان (الطاغوت) والله مصدر للخير ويدعو إلى الخير. وعلى عكس منه يدعو الشيطان إلى الشر. وبلاء المرء أن لا يتخذ بمكر الشيطان وأن يحذر منه ويفر إلى الله، والله وحده يجمع لكافة صفات الكمال وعظائم الأمور من العدل والرحمة والصدق والأمانة والإخلاص ويريد للإنسان أن يتخلق أيضاً بتلك الأخلاقيات الإلهية الكريمة، والشيطان يعاكسه بجمعه لكل الشرور والفتن، ويريد للإنسان أيضاً أن يأتي الشر ويرتكب الذنوب. إنه يشعل فيه رذائل الأخلاق الكامنة في جبلته، كالحسد والأنانية والغضب والاستكبار والأثرة وعدم الاعتراف. فبإيقاظ هذه النزعات وكبح الفطرة الصالحة يريد الشيطان أن يصيغ الإنسان بصبغته هو.

وكل إنسان في هذا العالم بين اتجاهين. كأنه يقوم

7

الدعوة والشهادة وبلغوا الأمانة. والمصير المحتوم سيقضي بين العباد يوم القيامة على أساس الشهادة (الدعوة) هذه، التي سبق أن تمت عليهم في الدنيا، وفي الحياة الدنيا تفرق الدعوة الناس وتقسّمهم إلى طائفتين. طائفة امنت وطائفة جحدت وأنكرت. وفي الآخرة أيضاً يفرق بينهما ويقضي لهما مصيران مختلفان وفقاً لعملهما. ويكون هذا القضاء قضاءً إلهياً مبرماً. إلا أنه يعلن بطريق عباد له مخصوصين أدوا الأمانة وقاموا بفريضة الدعوة والشهادة في العالم. ويكون ذلك إكرام كبير لهم فتوضع مساح عالية في ميدان القيامة ويقوم عليها أصحاب الأعراف ويرون من هنا كافة البشرية ثم ينادون كل أحد بإنشاء القضاء الإلهي له.

وقد قام الشهداء والدعاة في الدنيا بجهد وجهاد كبيرين في ممارسة الدعوة اعتباراً بها عملهم هم. ولذا

على رباط داخلي. ففي طرف واحد ضميره الذي يجره إلى الله، وفي طرف آخر تجزبه أنانيته وتدفع به إلى طريق الشيطان. الضمير يمثل الله والأنانية تمثل الشيطان. ويعمل الداعي لينذر الإنسان بهذه الحقيقة. وأن يوقظ ضميره ووجدانه ويجعله يعرف كلا الطرفين ويميز بينهما ويقاوم الأنانية ويقوي الضمير ويجتنب رغبات الشيطان ونزواته ويسير في طريق يهدي إلى الجنة — وهذا العمل الدعوي أهم وأحسن الأعمال التي تتم في أرض الله. إنه عمل رسالي وعمل الأنبياء والمرسلين، والذي يقوم به سيكرمه الله بالجائزة الخاصة. مثلاً جاء في القرآن ذكر أصحاب الأعراف. وهم الذين يقومون على منابر عالية ويعنون بقضاء الله لأهل الجنة وأهل النار ونص الآيات: ﴿وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم، ونادوا أصحاب الجنة أن

8

يجزون ذاك الجزاء الكريم أن يقوموا على الأعراف ويزفوا إلى الناس بمصيرهم المحتوم. كانوا على علو هدفاً ومقصداً في الدنيا ويكونون عالين باعتبار ثمرة العمل في العقبى.

إن العبد المؤمن، بعد الإيمان بالله مسئول على النطاق العملي عن أمرين، وهما طاعة الله ونصرة الله. ويراد بالأول أن يأتي العبد المؤمن بكل ما جاء به الرسول من عند الله من أمر ونهي، يأتي بجميع الطاعات ويجتنب بكل ما نهاه الله عنه في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم. أما نصرة الله فهو شرف بديع يعطاه العبد المؤمن، والمراد به الدعوة إلى الله في مصطلح القرآن، وبما أنه عمل مرضي من الله يقوم به العبد ولذا عبر عنه بنصرة الله. والعبد، عن طريق الانقياد بأوامر الله في العبادات والأخلاق والمعاملات، يقضي

11

سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون. وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون، أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة، أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿(الأعراف: 49-46)

والمراد بأصحاب الأعراف في هذه الآيات، الشهداء كما يقول المفسر القرطبي (الجزء السابع، صفحة: 211، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965).

واستعمل القرآن ألفاظاً وعبارات مختلفة للشهداء، نحو المنذر المبشر والداعي وغيره. ويمثل الأنبياء عليهم السلام هذه الزمرة المباركة أصالة، ثم يطلق ذلك تبعاً على أتباعهم ممن حملوا رسالتهم وأدوا فريضة

9

حاجة نفسه هو فبطريق إثبات عبوديته يستحق الجزاء من الله. لكن الدعوة إلى الله تختلف عنها لأنها رفع الحجة من الله ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: 165) وهي عمل إلهي محض يؤمر العباد بقيامه لمصلحة الابتلاء فإذا أدوه أجزل لهم أجراً جزيلاً. ولتفهم الأمر تفهماً مزيداً اقرأ الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصاراً لله، كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله، فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (الصف: 14)

ما المراد في هذه الآية بكون أنصار الله. أريد به المشاركة الفعالة في المشروع الدعوي الرباني قولاً وعملاً، وبذل أقصى الجهد في سبيل إقامة حجة الله على الناس كما قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

12

10

أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ قال الحواريون (وهم أتباع عيسى عليه السلام): نحن أنصار الله، أي نحن أنصار على ما أرسلت به وموازروك على ذلك. ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أيام الحج "من رجل يؤمني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي". (تفسير ابن كثير، المجلد 4، صفحة 362) ولا ريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة لكنه بنفسه عاش في الدنيا لمدة محددة ثم توفي. ويشور السؤال هنا أنه كيف تؤدي هذه المسؤولية بعده صلى الله عليه وسلم. والجواب أن الأمة هي المسؤولة عن القيام بهذا العمل بعده قد قام النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة في حياته أصالة

13

لا يسلك هذا الطريق. إنه يريد أن يتحقق إبلاغ الرسالة بين البشر عن طريق بشر بذاته، لكي يبقى الالتباس وحتى لا يتجرح مصلحة الابتلاء.

والدعوة التي يقال لها في القرآن الإنذار والتبشير عمل رباني خالص، وذلك لكي ترتفع الحجة من الله وتنتقل إلى الإنسان. وتقتضي مصلحة الابتلاء أن لا يتم ذلك العمل في أسلوب معجز ألوهي، بل يأتي به إنسان ولذا يتحقق هذا العمل الدعوي الرباني عن طريق أناس.

وأتاح ذلك للإنسان فرصة متاحة لأكثر عمل، لأنه من قام بهذا العمل الرباني الجليل استحق النصر الإلهية الخاصة في الحياة الدنيوية كما سوف يتشرف بالمراتب العليا في الآخرة.

إنه إذا صلى عبد صلى معتقداً إقرار عجزه أمام الرب تعالى، وبمقابلة ذلك إذا قام بالدعوة يشعر بأنه يعمل

ومباشرة، وتنم بعده على أيدي الأمة تبعاً. فيجب أن تقوم الأمة بمسئولية الدعوة وأمانة الدين إلى الناس أجمعين جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن — الدين الذي جاء به النبي والذي سيظل محفوظاً مصوناً إلى القيامة، ويوضح ذلك حديث أخرجه محمد بن إسحاق (786م) وشرح نبي الله صلى الله عليه وسلم فيه رسالته والبعثة المسيحية أيضاً، ونص الحديث كما يأتي:

قال ابن هشام: حدثني من أثق به عن أبي بكر الهذلي قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات يوم بعد عمرته التي صد عنها يوم الحديبية فقال: أيها الناس إن الله قد بعثني رحمةً وكافةً فلا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون على عيسى

14

عمل الله بالذات، وليس هناك تجربة لعدد — من دون شك — ألد من أن يشعر أنه يعمل عمل الرب تعالى ويساهم في تحقيق مشروع رباني مخصوص.

### من هم المسلمون

المسلمون، من حيث رسالتهم الأساسية في الحياة، هم دعاة إلى الحق، ومن عداهم من أفراد الشعوب والأمم الأخرى فهم "مدعون" إليه. فالمسلمون أمناء على الدين الإلهي؛ والمسئولية المنوطة بهم هي توصيل هذه الأمانة إلى الناس قاطبة. وإن سر نجاحهم في الدنيا وفي الآخرة معاً إنما يكمن في قيامهم بتأدية هذا الواجب على أكمل وجه.

وهذا ليس بأمر بسيط. وإنما هو مسؤولية خطيرة للغاية وهم مساء لئون أمام الله عن أي تقصير أو تقاعس نحوها. ولن يتمكن المسلمون من تأدية هذه المسؤولية على النحو المطلوب إلا إذا كانوا واعين بمقتضياتهم وجادين في

17

بن مريم؟ قال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتشاقل، وشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتشاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها (السير النبوية لابن هشام، المجلد الرابع، ص 606-607، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان)

وليس هناك شرف أكبر ولا عمل أفضل تحت أديم السماء وعلى سطح الأرض لإنسان من أن ينشط في فعالية ربانية محضة، كأنها نيابة عن الله عز وجل. ومن دون ريب إنها فضل لا فضل أكبر منه وأشرف، وإن الله قادر مطلق يقدر على إنجاز وإتمام كل شيء معلوم أو مجهول، فإن شاء أنطق الحجر لإبلاغ رسالته وجعل كل ورقة الشجر لساناً، يعلن رسالات ربه. ولكن الله

15

تحمل أعبائها بمنتهى الإخلاص. فالمسؤولية الدعوية لا يتأتى القيام بها إلا لمن يتحلى بالسلوك الدعوي؛ تماماً كما يتعذر على امرأة ما أن تقوم بمسؤوليات الأم كما ينبغي إذا خلا فؤادها من حنان الأمومة.

والدعوة عمادها "النصح" كما ورد في القرآن الكريم حكاية على ألسنة العديد من الأنبياء والرسل. وهم القدوة المثلى للدعاة في كل زمان ومكان: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم﴾ (الأعراف: 61) وقوله تعالى: ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ (الأعراف: 68) وقوله تعالى: ﴿لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ (الأعراف: 79) و"النصح" معناه حب النخير للمدعو من طرف واحد. فمن مقتضيات السلوك الدعوي أن يكون قلب الداعية مفعماً بالمشاعر الإيجابية الخالصة تجاه المدعو وأن يخلو تماماً من أية مشاعر سلبية ضده. وهذا

18

16

هو النصح المتمثل في تحري الخير لأجل الغير من طرف واحد. وليس في مقدور الداعية أن يؤدي مسؤوليات الدعوة ما لم يتوفر لديه هذا النوع النصح الخالص لمن يدعوه.

وثمة حقيقة لا بد من أخذها في الاعتبار. ألا وهي أن البشر - أفراداً وجماعات - يتعرضون في عالمنا الراهن لألوان شتى من المنغصات بحكم التعايش والاحتكاك مع بعضهم البعض. فقد يقول شخص ما كلاماً أو يفعل شيئاً لا يروق للشخص الآخر. وقد يمارس فريق منهم نشاطاً يتسبب في استفزاز الفريق الآخر. تلك هي سنة الحياة. ولن يقدر أحد - كائناً من كان - على تغييرها أبداً. وفي هذا الحالة لا متمسكاً بمبدء حسن الخلق أحادي الجانب. وذلك مما يقتضي أن يكون تعامله مع الناس قائماً على مبادئه السامية المدروسة وليس نابغاً من

19

التمثل في تبليغ رسالته والدعوة إلى هديه فإنه سيظل مستمراً إلى قيام الساعة. ومن هنا كان المسلمون حملة نبراس النبوة بعد ختم النبوة بحيث يتعين على كل مسلم أن يبذل ما في وسعه في سبيل تبليغ رسالة نبيه ونشر دعوته بين الناس. إن هذه المهمة الدعوية فريضة على كل مسلم بموجب قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة: 143) وبموجب وصية الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع "بلغوا عني ولو آية" (كما روي في الصحاح). وإن الذين يتقاعسون عن أداء هذه الفريضة فمن المحذور جداً أن يفقد هؤلاء أحقية الانتماء إلى أمة خاتم النبيين - والعياد بالله.

### الدعوة إلى الله

ما هو الهدف من خلق الإنسان على وجه الأرض؟

نفسية رد الفعل بأي حال من الأحوال.

فالمسلمون - بصفة كونهم دعاة - لا يجوز لهم أن يرفعوا عقيرتهم بالشكوى أو يقوموا بإثارة حركة احتجاجية (protest) ضد أي شعب من الشعوب الأخرى لكونه في واقع الأمر بمثابة "الشعب المدعو" إلى رسالتهم. فالشكوى والاحتجاج لا يتفقان وروح الدعوة على الإطلاق. وبالتالي يجب على المسلمين - أينما كانوا - أن يحرصوا على تكوين علاقات ودية مع كافة الشعوب بدلاً من علاقة الخصومة والمنافسة. فإن مهام الدعوة إلى الله يمكن ممارستها أصلاً في بيئة يسودها المودة والوئام بين "الدعاة" وبين "المدعويين".

لقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في الآية رقم 33 من سورة الأحزاب قائلاً: "دع أذاهم وتوكل على الله". مما يعني بعبارة أخرى أن عليه أن لا يطالب

20

وما هي الخطة الإلهية من وراء إرساله عليها؟ إذا تفحصنا القرآن وجدنا الإجابة واضحة بيّنة ألا وهي: أن القصد من وراء ذلك كله هو ابتلاء الإنسان واختباره، يقول الله تعالى: خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً (الملك: 3).

إن هذا الاختبار هو أمر في غاية الخطورة، إذ أنّ قضية الجنة والنار سيتم إبرامها بناء على هذا الاختبار الحاسم. ولخطورة الأمر وجديته فإن الله قد وضع ترتيباً لإحاطة الإنسان بالعلم حول خطة الله من وراء الخلق (creation plan of God) وقد صاغ الله فطرة الإنسان في شكل خاص بحيث تقدّم شهادة داخلية على هذا الأمر ناهيك عن المظاهر الطبيعية التي تظهر في آفاق هذا الكون الفسيح. ومن جهة أخرى، فإن الله قد رتب أمر اصطفاء الرسل والأنبياء من بني البشر أنفسهم

23

البشر بشيء أبداً وإنما يتوجه بكل طلباته إلى الله عن طريق الدعاء والتضرع إليه. ومن ثم جرث عادة كل نبي عبر العصور بأن يصارح قومه عند انطلاقة دعوته قائلاً: ﴿وما أسألكم عليه من أجر؛ إن أجري إلا على رب العالمين﴾ (الشعراء: 109) أي أنني لست طالب مصلحة مادية أو منفعة شخصية؛ فقد جئتكم لكي أعطيكم ما عندي وليس لكي آخذ منكم شيئاً. وفي ضوء أسوة الأنبياء هذه يتضح بجلاء أنه لا يحق للدعاة بتاتا أن يقوموا بإطلاق أية حملة ضد "الشعوب المدعوة" تحت شعار المطالبة بالحقوق (rights) أو أي مسمى آخر.

ومن المعلوم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان خاتم الأنبياء والمرسلين؛ فلن يبعث بعده نبي ولا رسول. غير أن الشيء الذي ختم به هو "منصب النبوة" وليس "عمل النبوة"

21

مزوداً إياهم بعلم الحقائق مباشرة عن طريق الملائكة المطهرين، وأمرهم بأن يطلعوا الناس عن الخطة الإلهية من وراء الخلق، ويعلموا عنها بلغة مفهومة ومدركة، ويجعلوا إرادة الله أمام عباده شيئاً مألوفاً.

ويتضح لنا - من خلال القرآن - أن جميع الرسل المصطفين كان عندهم هذا الأمر هو الرسالة المشتركة بينهم ليس إلا، وكانت مهمتهم الأساسية هي أن يحيطوا البشر المعاصرين لهم بهذا الخطة الربانية لتلا يكون للناس حجة في الآخرة بعد الرسل بأنه لم يخبرهم أحد عن الحقيقة: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لتلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: 165).

### القبلة الموقوتة

إذا كنت على علم بأن هناك قبلة قد وضعت داخل أحد المباني، وهي على وشك الانفجار، لا

24

22

يفصلها عن ذلك سوى خمس دقائق. ترى ما الذي ستفعله في تلك اللحظات الحرجة؟ إنك سوف تركز كل محاولتك على إعلام كل من يوج في داخل المبنى بخطورة هذه الحقيقة وجديتها وبأنها ستقع حتماً، وفي مثل هذا الوضع الحرج سوف لن تبعاً بأمر أخرى مهما كانت هامة في ظاهر الأمر. إن الأمر نفسه ينطبق على عالم الدنيا أيضاً، إذ أن العالم بأسره يقف على قبيلة إلهية موقوتة -ألا، وهي القيامة. أن القيامة بدون شك هي لحظة حرجة وذات خطورة قصوى بالنسبة للإنسان الذي سيقبل عليها، وهي آتية لا ريب فيها، ويمكن أن نفاجا بها في أي لحظة، ولا أحد يعلم موعد قيامها إلا الله.

إن هذا الوضع المدهش للقيامة يجعل الإنسان أمام خطر داهم، مما يقتضي منه التزوّد بمعلومات كافية

25

وينذرون الناس ويحذروهم من خطرهما. وهذا الإنذار هو نقطة البداية والنهاية في رسالتهم.

### مسلمو العصر الحديث

يتضح لنا من خلال مطالعة القرآن والسنة أن الأهمية الأساسية تعزى إلى الدعوة، أي إيصال رسالة الله تعالى إلى أمم غير مسلمة. إلا أن المسلمين المعاصرين نسوا أو تناسوا هذا الأمر الخطير لسبب أو لآخر، إنهم فقدوا الأحاسيس الدعوية إلى حدّ أنهم لا يكادون يميزون بين الدعوة ونقيضها، فأصبحوا يطلقون لفظ الدعوة على ما لا يمت إلى الدعوة بصلّة، ويكافحون من أجل منافع قومية ويضعون لها عنوان الدعوة. مثلهم في ذلك مثل جماعة لا تبعاً بالصلاة في حين أنها تفرط في إقامة حفلات لعيد ميلاد النبي ﷺ معتقدة أنها بذلك تؤدي فريضة دينية كما تؤدي الصلاة تماماً.

28

حولها، فليس للإنسان مشكلة أبلغ صعوبة منها. فيتوجب عليه إذاً أن يكون يقظاً دائماً، لأنها ربما تظهر أمامه في أي لحظة في صورة انفجار هائل وعظيم.

هذا هو السبب الذي جعل القرآن يعبر عن الداعي بالمُنذِر، وعن الدعوة بالإنذار، أي الإنذار من اليوم الرهيب المروّع. وورد في السنة أن النبي إذا خطب الناس وتعرّض إلى ذكر تلك اللحظة الحرجة، كان يبدو وكأنه ينذر من هجوم عسكري مفاجئ (كأنه منذر جيش).

فما هو الأسلوب الذي كان يستخدمه النبي ﷺ في هذا الشأن؟ يتضح من خلال الخطبة التي خطبها عليه الصلاة والسلام عقب نزول الأمر القرآني: ﴿قم فأندرك﴾ (المدثر: 2).

عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد إلى الجبل فنادى: "يا صباحاه". فاجتمعت إليه قريش، فقال: "أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أم ممسيكم أكنتم

26

إن غفلتكم هذه قد وصلت إلى آخر مطاف لها، إذ أنّ الأمر لا يقف عند عدم قيامهم بالدعوة فقط، بل إنهم نتيجة لقدانهم الشعور الدعوي قد انشغلوا بأعمال كفيفة بأن تقضي على فرص الدعوة وإمكاناتها. والدعوة تقتضي ألا يكون هنالك أي نوع من الصراع - مادياً كان أو قومياً - بين الداعي والمدعو، لأن الصراعات المادية أو القومية التي تقوم بين الداعية والمدعو تكدر صفو الدعوة، ومن ثم يتوجب على الداعية أن ينهي كافة أعمال الصراع بينه وبين المدعو حتى يتسنى له أن يسوي الطرق ويعبدها للقيام بأنشطة ومهام الدعوة.

لكن واقع المسلمين المعاصرين هو أنهم نتيجة لفقدانهم الشعور الدعوي قد انصرفوا إلى صراعات سياسية مادية وقومية مع الأمم المدعوة. وهذا النوع من الصراعات مهما تراءى للمسلمين بأن ذو فوائد

29

تصدقوني" قالوا: نعم، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا . (صحيح البخاري، رقم الحديث: 4688)

هذا هو أسلوب الخطاب الذي استخدمه النبي ﷺ في الدور المكّي، وهو نفس أسلوب الخطاب الذي استخدمه في الدور المدني أيضاً. وقد أورد ابن هشام في سيرته أول خطبة ألقاها النبي ﷺ أمام الناس بعد وصوله إلى المدينة ويظهر لنا من خلالها نفس الأسلوب الأخرى الذي كان قد اختاره النبي ﷺ في الطور المكّي.

والواقع أن الإنسان إذ أحسّ بجديّة قضية الآخرة فإن سعيه ما عداها من القضايا هباء منثوراً مهما بلغت ضخامتها وكبرها، وهو لن يعبأ بها بل سيعرض عنها إعراضاً. وهذا هو شأن الأنبياء، إنهم يرون الآخرة رأى العين، لذا فإنها تصبح أكبر وأعظم شئ في نظرهم،

27

ومنافع إلا أنه بمثابة السم في الدسم بالنسبة إلى الأنشطة الدعوية وحينئذ يصبح اللاشعور الدعوي الذي يتمتع به المسلمون جريمة عظيمة، لذا فالمسلمون ملزمون بإنهاء كافة أنواع النزاع مع الأمم المدعوة وإلا تورطوا في مخالفة قانون الله، كما هو شأن اليهود الذين تهاووا في قعر الهلاك، وأصبحوا بمعزل عن رحمة الله.

إن الأمر الذي ينبغي أن يعنى به المسلمون أولاً وقبل كل شئ، هو أن يعملوا جادين من أجل إيقاظ مشاعر وأحاسيس الدعوة في نفوسهم، وأن يبعثوا فيها الحياة والديناميكية من جديد.

ما هي الدعوة؟ وما هي المهام التي تنضوي تحتها؟ وكيف أن نصرة الله تتوقف أولاً وأخيراً على القيام بأنشطة دعوية؟ إن مثل هذه الأمور قد انمحت من أذهان

30

المسلمين، وأصبحت نسياً منسياً. والمسلمون كلهم، عامتهم وخاصتهم، راحوا ضحية عدم الشعور الدعوي. إنَّ أكبر وأهم عمل يمكن أن يقوم به المسلم المعاصر، هو إيقاظ ذلك الشعور أو الإحساس المفقود، وأن يكتشفه من جديد. أما الأعمال الثانوية الأخرى فهي تبع لذلك الأمر، كما أن بقاءها يتوقف على حيوية ذلك الشعور الدعوي فحسب.

إن الدعوة إلى الله هي بمثابة التمثيل عن الله بين عباده. وهي أمر يتناوله الداعية باعتباره مسئوليته الوحيدة، دون أن يطمح إلى أية حقوق، والداعية يعطي ثم يأخذ أجره من الله. وحين يؤذيه الناس يصبر ويتابر من أجل الله، وهو يتلقى الحرمان من قبل الناس، إلا أنه يبقى جاداً في مهمته المقدسة دون أن يعتريه أي وهن. إن الداعية يبذر بذوره في الدنيا ليجدها في الآخرة

31

الكتاب والسنة إلى كافة البشر بطريقة كاملة مكتملة حتى لا يجد أحد منهم فرصة في الآخرة لأن يقول إنه كان غافلاً عن هذا، وأن الدعوة لم تصل إليه.

هذه هي الفريضة الأصلية التي تعود مسئوليتها على الأمة الإسلامية بحكم مركزها ومكانتها. ولكن – للأسف الشديد – أن هذه الفريضة الكبرى قد أهملها المسلمون اليوم أشدَّ إهمال، وتفاعسوا عن تأديتها أكثر من أي شيء آخر. وما من سبب لهذا الإهمال والتفاسع الإجرامي سوى أن المسلمين المعاصرين قد أخذت مشاكلهم القومية بمجامع قلوبهم، وسيطرت على أذهانهم، فنتج عن ذلك أن قضية الدعوة وتبعاتها غابت واحتجبت عن أنظارهم.

### الحماية عن طريق الدعوة

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا

34

وقد أصبحت شجرة يانعة شامخة. وأنشطة الدعوة لا تنبت إلا في أرضية الصبر. فالذين لا يستطيعون الصبر، هم غير قادرين على القيام بالدعوة: وما يلحقها إلا الذين صبروا، وما يلحقها إلا ذو حظ عظيم.

### تاريخ الدعوة إلى الإسلام

المسلمون كأمة ينتمون إلى خاتم النبيين ﷺ. إنَّ هذه الحيشية للمسلمين هي التي تحدد ماهية المسئولية التي نيظت بهم في هذه الدنيا بصفتهم "أمة" وتلك المسئولية هي قيامهم بعملية الدعوة إلى الله. تلك العملية التي كان الأنبياء والرسل يُبعثون من أجل الاضطلاع بها في العصور الماضية. ولا شك أن سلسلة النبوة قد انقطعت بعد وفاة النبي العربي ﷺ ولكن العمل النبوي لم ينقطع، وما زال

32

أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلَّغَتْ رسالته، واللَّهُ يعصمك من الناس، إنَّ اللّهُ لا يهدي القوم الظالمين ﴿المائدة: 67﴾.

وبخصوص أسباب النزول لهذه الآية الكريمة، وردت روايات عديدة في كتب الحديث والتفسير، منها ما روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: لما بعثني اللّهُ برسالته ضقت بها ذراعاً، وعرفت أنّ من الناس من يكذبني فأنزّل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ وجاء في رواية أخرى أن رسول الله ﷺ كان يُحرس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال: "انصرفوا أيها الناس! فقد عصمني الله" (سنن الترمذي، رقم الحديث: 3046).

فمن هذه الآية يظهر بجلاء أن سرّ "العصمة من الناس" إنما هو يكمن في "الدعوة إلى الله". إذ كانت

35

مستمرا ومطلوباً بالتمام. والحقيقية هي أن المسلمين هم في مكان النبوة بعد انقطاعها، ومن هنا فلا يمكن أن يتحقق وجودهم "كأمة" بأي عمل آخر غير الاضطلاع بالعمل النبوي.

ما هو العمل النبوي؟ إنه إيصال رسالة الله إلى عباده، وإبلاغ دعوة التوحيد إلى الغارقين في الشرك والوثنية، وإنذار الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا – وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا – باليوم الآخر الذي لا ريب في قدومه، وإطلاع كل فرد من البشر على أنه ليس حراً طليقاً يتصرف في حياته كيف يشاء بل إنه تحت أوامر الله تعالى فعليه أن يعيش حياة ملتزمة منضبطة، وليس له أن يعيش حياة متحررة ومنطلقة من كل القيود والحدود، وبإيجاز إن العمل النبوي يتلخص في تبليغ ذلك العلم الرباني المحفوظ في صورة

33

الظروف قاضية بحراسة الرسول وكلائه. أما الآن فليس هناك حاجة إلى أفراد قطاع من الجهد لهذا الأمر، لأن عملية الدعوة هي نفسها قد تكفلت له بالعصمة أيضاً، وإن موعود العصمة من قبل الله في الأصل كان لرسوله بصورة خاصة، ولكنه يشمل أمته أيضاً تبعاً له. إن هذه لحقيقة ذات أهمية أساسية وينبغي أن نستعرض ونعالج جميع شؤوننا وقضايانا في ضوء هذه الحقيقة. فإذا ما أحيط أهل الإسلام بخاطر يعكس مشكلة العصمة والحماية ممن دونهم، فلا يكون له من سبب سوى أن الأمة قد أهملت فريضة الدعوة إلى الله ونبذتها. وإذا ما نهضت الأمة بفريضة الدعوة إلى الله فلتستيقن أن الله قد ضمن لها العصمة من كل الأخطار والتهديدات الخارجية. وليست هناك حاجة تبعث إلى أفراد قطاع من الجهد لمجابهتها، بل التركيز الكلي وبذل الجهد

36

ينبغي أن يتوجه إلى الدعوة إلى الله. وأما فيما يتعلق بالمخاوف والأخطار الأخرى، فلأخذ بالتربص والصبر، لأن أشجاحتها وظلالها المخيفة، تأخذ تتقلص وتنحسر وتتلاشى تلقائياً فيما بعد.

أن المراد بالدعوة في هذا المقام هو نشر الإسلام بين غير المسلمين، وبعبارة أخرى إيصال رسالة الله إلى عباده الذين لم يدخلوا بعد في دائرة طاعة الله تعالى، وحيشما ورد لفظ الدعوة أو التبليغ في القرآن الكريم فإنما ورد في هذا المعنى، أي إيصال الدعوة إلى غير المسلمين، أما ما يجب علينا حيال جماعة المسلمين أنفسهم، فإن القرآن يذكره بكلمات: التذكير، والإصلاح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وما إلى ذلك. ويمكن لنا أن نطلق اسم الدعوة والتبليغ على ممارسة الإصلاح

37

كدع إلى الحق، تغمده الله بعنايته وحمايته، ولم يتمكن فرعون - رغم كل طاقاته - من تحقيق نواياه المشثومة، وإنفاذ ما مكر به من سيئات.

إن عصمة القائمين بعملية الدعوة إلى الله موعود إلهي حق - لا ريب فيه - ولكن تحقيق هذا الموعود متوقف على القيام بعملية الدعوة الحقيقية، دون أي عمل سواها. ولو تشاغلنا بأي عمل آخر ثم أضفينا عليه عنوان "الدعوة إلى الله" فليس لنا أن نتوقع أبداً أن وعد الله سيتحقق ليعصمنا مما نتعرض له من أخطار ومهالك في طريقنا.

### العصر الجديد

إن الوضع المناسب للإسلام في العصر الحديث يكمن في الوضع غير المواتي له، إلا أن المهم هو اكتشافه والاستفادة منه، فلو استطعنا أن نثبت تلك الحكمة

الديني داخل المجتمع الإسلامي على سبيل المجاز إلا أن العملية التي سميت بالدعوة حقيقة إنما هي "عملية إبلاغ الأمم غير المسلمة برسالة الله" دون الإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم.

وقد ذكر القرآن قصة "رجل مؤمن" في زمن سيدنا موسى عليه السلام. كان من أمراء فرعون، آمن بالله ولم يزل يكثر إيمانه حتى كان اليوم الذي أصدر فيه فرعون قراره النهائي في شأن موسى، وهو أنه سيقتله ويقضي على ما جاء به. فلم يتمكن "الرجل المؤمن" من الصبر والسكوت على الحق، فقام محامياً على موسى عليه السلام، وكلم فرعون وأمرائه بأسلوب جعل كلامه خطاباً دعوياً بكل معاني الكلمة. وهذه المرحلة كانت في غاية الحرج والخطورة، فإن فرعون كان قد أعلن عداوته مع موسى صراحة.

38

العملية التي أثبتتها النبي وصحابته في الدور الأول عند صلح الحديبية، يمكن أن تؤكد على أن النتائج التي سنحققها هي نفس النتائج التي تحققت عند صلح الحديبية. ألا، وهي إقبال الناس أفواجا على الإسلام.

وللاستفادة من هذا الوضع نحتاج إلى توضيحات بالغة. ومن المعروف أن تغيير وضع ما يتطلب توضيحات جملة. والوضع - الآن - يتطلب من المسلمين تلك التوضيحات نفسها التي قدمها النبي وصحابته عند صلح الحديبية. وهذا يعني إنهاء جميع أنواع الخصومات والتناحرات بشكل كلي وإيجاد جو هادئ غير متوتر.

إن المسلمين في أنحاء العالم اليوم منصرفون للعمل بنفسية رد الفعل، إذ أنهم في حرب مادية ومعنوية مع الآخرين. وهذه هي العقبة الأصلية في طريق الدعوة، والتي جعلت علاقة الداعي بالمدعو تتحول إلى علاقة

41

فكان طبيعياً أن يصبح هو معادياً كذلك لمن أراد موالاته موسى والقيام معه، ويعاملهما بنوع واحد من التعذيب والمكر السيئ. ولكن "الرجل المؤمن" لم تخوفه المخاوف، ولم تستعبده المصالح الأخرى، وأبى إلا أن يؤثر المجاهرة بالحق وتبليغه على كل ما سواه. وبعد أن نقل القرآن خطاب "الرجل المؤمن" قال: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾. المؤمن: 45

إن هذه الآية دلالة واضحة على أن الذي كان قد صار درعاً واقياً للرجل المؤمن "من سيئات ما مكروا" هو "دعوة الحق". فإن الرجل المؤمن لم يكن لديه شئ من ثروة أو رأسمال سوى معرفة الحق ودعوته، بينما كان فرعون، يملك كل أنواع القوى المادية. ولكن "الرجل المؤمن" حيثما قام بدوره

39

الند بالند. ولذلك فعلى المسلمين أن ينهوا كافة أنواع المصادمات مع الآخرين تماماً لكي تعود علاقة الداعي والمدعو من جديد، وينشأ بينهم وبين الآخرين جو هادئ تقدم فيه دعوة الإسلام ويسمعها الآخرون ويعونها بذهن مفتوح.

إن العصر الحديث قد خلق للإسلام إمكانات جديدة مواتية له من جهة، ومن جهة أخرى ثمة جو من التناحر والصدام يجري بين المسلمين والآخرين في ربوع العالم. وفي هذا الوضع ينبغي للمسلمين أن يعملوا على إحياء تلك السنة النبوية التي ظهرت في السنة السادسة للهجرة وذلك بإنهاء التناحر وجو الصدام بين المسلمين والآخرين وبشكل كامل، والصبر على المصائب التي تحدث بفعل الآخرين. فلو تبني المسلمون هذا المنهج لا نطفأت نار العداوة التي تشتعل بينهم وبين

42

40

الآخرين نهائياً. والأمر الذي يبقى بعد ذلك هو الذي أسمينا "الإمكانات الجديدة للدعوة الإسلامية" فبمجرد إنهاء جو النفور والصدام تظهر تلك الإنكيات المخجأة. وفي اليوم الذي يتحقق فيه ذلك سيبدأ تاريخ جديد للإسلام ينطلق قدماً إلى الأمام - كما قدره الله - حتى يصل إلى هدفه المنشود (لا يبقى 'على' ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام).

### التيسير

إن البيئة المواتية للدعوة، والتي نشأت بفعل إنهاء الفتنة (persecution) قد عبر عنها القرآن بالتيسير، حيث ورد في القرآن: ﴿وَيَسِّرْكَ لِيَسْرَىٰ فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَىٰ﴾ (الأعلى: 9، 8) كما علم القرآن الصحابة دعاء كانوا يدعون به في مناجاتهم لربهم، وهو قوله تعالى: ﴿رَبِّنا ولا تحمل علينا إصراً كما

43

وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (النساء: 165).

وهذه المهمة ذاتها ألقيت على عاتق أمة النبي ﷺ فور انتقاله إلى رحمة الله. وبهذا الاعتبار، يصح لنا القول بأن المسلمين في مقام النبوة بعد ختم النبوة. وإن أهم ما آل إليهم من المسؤوليات هو النهوض بفريضة تبليغ الدعوة إلى شعوب العالم مع مراعاة كافة أنواع الشروط والواجبات. وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم، فنعم المولى ونعم النصير﴾ (الحج: 78).

إن هذا هو الأمر المطلوب في نظر الله، وإذا اضطلع به

حملته على الذين من قبلنا﴾ فإنهاء التشدد الديني (religious persecution) القديم، هو وفاء من الله بوعده واستجابة منه لدعاء الصحابة الكرام.

والحقيقة أن الله تعالى لم يلق على عاتقنا مهمة الدعوة فحسب، بل إنه يسر السبل أيضاً لتبليغ هذه الدعوة. وهو لم يكتف بتكليفنا بهذه المهمة بل زدنا بمدده الخاص، وهياً لنا سائر الأسباب التي تسهل لنا الوصول إلى الغاية المنشودة، بل إنه من أجل تيسير الطرق وتعبيدها غير مسار التاريخ البشري.

### إتمام الحجة

إن مهمة الدعوة ليست هينة إذ أنها ترتبط بشكل مباشر بخطة الله من وراء الخلق (creation plan). لذا فإن أهميتها لا تقتصر على العباد فحسب، بل هي ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى الله أيضاً.

44

أحد فإن الله يزوده بضمانات وقوة لازمة للقيام بذلك. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾

### حفظ الدين بواسطة الدعوة

إن القرآن ينص على أن النبي ﷺ كانت بعثته بصفته داعية إلى الله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله ياذنه وسراجاً منيراً﴾ (الأحزاب: 45-46). وأن الدعوة هي جل مهمته ومحورها، إذ أن رسالته هي اضطلاع بدعوة التوحيد وتبليغه إلى الجنس البشري بأسره. أما الأمور الأخرى فهي تدور حول هذا الأمر العظيم، فإذا ما قام بمهمته على وجه أكمل وأرقى تيسرت له الأمور الأخرى بتأييد من الله ونصرته، وإذا لم يقم بتلك المهمة المحورية لم تيسر له الأمور الأخرى أبداً. إن أهم ما يعول عليه الفرد أو الجماعة ويولونه اهتماماً خاصاً، هو حفاظهم

47

إن الدنيا هي بمثابة قاعة الامتحان بالنسبة للإنسان، إذ ينص القرآن بأن الله: ﴿خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (الملك: 2). إن هذا الجانب من الخطة الإلهية في الخلق يتطلب إيضاح مخاطره للإنسان، كي لا يلجأ أحد في الآخر إلى التذرع بأنه تورط في حساب عن أشياء لم يكن يعرف عنها شيئاً.

فلو أصبح بمقدور الناس أن يطرحوا هذا السؤال، فهذا يعني أن الحجة لم تعد ملقاة على الناس بل على الله. هذا هو الهدف الوحيد الذي رتب الله من أجله نظام الوحي والرسالة. فاصطفى أناساً بمحض مشيئته، وجعلهم المندوبين المعتمدين، وزودهم بعلم الحقائق بوسائل مخصوصة، وألقيت على عاتقهم مهمة تعريف الناس بالحقائق. قال الله تعالى: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل،

45

على أنفسهم ووقايتها لئلا يلحق بهم أي الأعداء، ويخيل إليهم أن جل ما يستطيعون القيام به هو بذل أقصى الجهد في سبيل قمع تمرد المعارضين وكبح جماحه، إلا أن الله تعالى يخاطب نبيه في القرآن بأنه ليس في حاجة إلى بذل الجهد في سبيل تلك الأشياء، بل يأمره بالتعلق بالدعوة والنهوض بها بشكل دائم، وهو ما يسفر عن خلق الله لأوضاع مواتية تحل فيها قضية الحفاظ والوقاية بشكل تلقائي. وهذا ما تلفتنا إليه الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس، إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ (المائدة: 67). فهي تبين بوضوح أن سر العصمة من الناس يكمن في تبليغ ما أنزل الله، ونحن ينبغي ألا نركز على تلك الأسوة النبوية. أعني الدعوة الدائمة إلى الله، في الأوقات العادية

48

46



فحسب، بل يجب علينا أن نلتزمها حتى في الحالات المتواترة وفي الأوضاع غير المواتية، فحين يحيط بنا خطر الأعداء من كل جانب، وحين تصح قضية الدفاع من أخطر القضايا، في مثل هذه الحالات ينبغي أن تكون الدعوة هي المحور الذي يركز عليه المسلم، فيبذل كل إمكانياته المتاحة في إطارها المشروع. أما الأشياء الأخرى التي ينشدها فنكمن في القيام بهذه المهمة.

### النشاط الإسلامي الدعوي

نعم . يلزم اجراء الأنشطة بشكل تنظيمي بقصد الوصول إلى غاية أو هدف اجتماعي . فإذا استهدف المرء خطة اجتماعية معينة فإنه طبقاً لطبيعته الخاصة يكون قد نهج أسلوباً معيناً بهدف الوصول إلى ما ينشده، وثمة صور متنوعة لهذه الأساليب.

منها ما يطلق عليه الأنشطة المتشددة

49

القوانين الشرعية، إنه أمر يخص النبي ﷺ بصفة خاتم النبيين حيث لا نبي بعده. إن الإسلام والتوحيد قبل بعثة النبي محمد ﷺ كان في كنف الحقيقة النظرية، ولم يكن قد بلغ بعد إلى مرحلة الثورة الفكرية. فالنبي ﷺ بفضل الله الخاص قد جعل التوحيد يجتاز مرحلة الحقيقة النظرية ويصل إلى مرحلة الثورة الفكرية.

إن إظهار الدين هو ما عبر عنه في موضع آخر بإكمال الدين (المائدة: 3). وقد وصلت تلك المهمة إلى ذروتها بفعل النبي ﷺ وأصحابه، ولم يبق أمامنا من خيار إلا أن نواصل رسالة الله إلى عباده عن طريق استخدام الوسائل المتاحة والأوضاع المواتية.

### الشعور الدعوي

إن أهم وأعظم ما فقدته المسلمون المعاصرون هو الشعور الدعوي. والمسلمون يتمتعون بنعمة عظيمة

(violent activism)

والنوع الثاني من الأنشطة يطلق عليه الأنشطة غير المتشددة (non-violent activism)

أما النوع الثالث فهو ما يطلق عليه الأنشطة السياسية (political activism)

لكن أساليب العمل الثلاث لا تتفق وطبيعة الإسلام، إذ أن أسلوب العمل الذي ينص عليه القرآن والسنة هو أسلوب الدعوة. لنطلق عليه حسب المصطلحات المعاصرة، الأنشطة الدعوية (Dawah activism) ويتضمن هذا الأسلوب الوسائل الجدية الصادقة: كالإقناع بدل الإرغام، وكسب القلوب بدل قمعها، وتبني أسلوب النصح وإرادة الخير بدل المعارضة، والعطف على الطرف الثاني بدل التنكر له، حتى يبدأ الدعاء يخرج من الأفواه بشكل عفوي. فالدعوة هي إرادة الخير والنصح وليست المعارضة أو التنكر.

50

عن طريق الدعوة التي وضعتهم وسط الأمم الأخرى في وضع موات وملائم (advantageous position) إلا أنهم بسبب فقدانهم الشعور الدعوي يحرمون اليوم من استخدام هذا الإمكان العظيم. وهم يضيعون قواهم وإمكانياتهم في أنشطة لا طائل وراءها، أو قل إنها ليست بأنشطة البتة.

إن أكبر شئ يمكن عمله اليوم، هو إحياء الشعور الدعوي وإعطاؤه مكانته. وكل ما نفعله في ميدان أو ميادين أخرى عدا هذا الميدان سوف لا يؤدي إلا إلى ضياع الطاقات ورؤوس الأموال، مهما تراءت لنا تلك الميادين مجدية أو مهمة.

### عمى الدعوة

من الأمراض التي تصاب بها العين ما يسمى بعمى الألوان (colour blindness). والمصاب بهذا المرض

53

إن هذا النشاط الدعوي هو - في الواقع - عمل إسلامي أصيل. وهو الأسلوب الوحيد الذي يمكن للمسلمين أن يروا بواسطته سبيل النجاح في الدنيا الحاضرة العابرة وفي الحياة الآخرة الأبدية.

### الدعوة إلى الدين وإظهار الدين

هناك مصطلحان يدل الواحد منهما على عكس ما يدل عليه الآخر. وهما: (1) الدعوة إلى الدين (2) إظهار الدين. إن الدعوة إلى الدين حكم عام يعني إعلام الشعوب بدين الله عز وجل وتبليغه إليهم حتى يصل إلى مرحلة إتمام الحجة. ومثل هذا النشاط الدعوي قد قام به الأنبياء على اختلاف الزمان والمكان، والذين أصبح اليوم مهمة ملقاة على عاتق الأمة المحمدية إلى يوم القيامة.

أما إظهار الدين فلا يعني إقامة الحكومة وتنفيذ

51

يسمى أعمى الألوان (colour blind) وهو مرض ينشأ نتيجة حدوث خلل في حدقة العين (Iris) والمصابون بهذا المرض لا يتمكنون إلا من رؤية بعض الألوان دون البعض الآخر.

وهناك أنواع عدة لهذا العمى فمنهم من هو أعمى اللون الأزرق (blue blind) ومنهم من هو أعمى اللون الأخضر (green blind) وهكذا، غير أن المصاب به لا يشعر بإصابته بذلك المرض بل يجهله تماماً، إنه على علم بتلك الألوان التي تسمح عينه برؤيتها بينما الألوان التي لا يتمكن من رؤيتها يحسب أنه لا وجود لها البتة.

إن أوضاع المسلمين الراهنة توحى لنا بأنهم أصبحوا مرضى من هذا النوع مما يدعوننا إلى أن نطلق عليهم عمى الدعوة (Dawah blindness). إذ أن المسلم

54

المعاصر يرى كل شيء سوى شيء واحد يتعمى عنه ألا وهو أمر الدعوة وما يتصل بها. والمصاب بمرض عمى الألوان قد يحفظ أسماء الألوان مثلاً: الأحمر أو الأزرق أو الأخضر إلا أنه يجهل حقيقتها تماماً. وهذا الأمر ينطبق تماماً على الذين أصبحوا عمى الدعوة، حيث إنهم يرددون لفظة الدعوة لكنهم يجهلون حقيقتها تماماً. إنهم يرددون كلمة الدعوة إلا أنهم يتحدثون عن أشياء لا تمت بصلة إلى الدعوة حتى أنهم أحياناً يتجاوزون الحد حين يتفوهون بكلمات تخالف تماماً مصالح الدعوة وأنشطتها.

وكان من نتائج هذا العمى الدعوي أن المسلم المعاصر تتراءى له أحكام القتال في القرآن والسنة بينهما يتغافل عن أحكام الدعوة إلى الله، ويعثر على ألفاظ قيادية بهدف إبراز مكانة المسلمين ومنصبهم

55

الشهيد. قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة: 143) ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ (الحج: 78)

وهكذا فإن البشرية تنقسم إلى قسمين: (1) الشهداء (2) المشهود عليهم. ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿والسماوات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود﴾ "الشاهد" هذه الأمة، والمشهود سائر الأمم. ويمكن أن نعبر عنه بالداعي والمدعو. وقد ورد في سورة ق: ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ السائق يعني الملائكة، والشهيد هو الداعية الذي يقوم بالدعوة عليه.

لقد استخدمت كلمة الشهيد بمعنى المقتول في سبيل الله في بعض الأحاديث النبوية، إلا أنه ليس

58

بينما هو لا يقف على الألفاظ الدعوية، كما يجد في التاريخ الإسلامي وذخيرة الفقه نموذج المسلم الحاكم بينما يخفق في العثور على نموذج المسلم الداعية. إنه على دراية بالمصطلحات التي تتعلق بدار الحرب ودار الإسلام لكنه يجهل مصطلح دار الدعوة جهلاً مطبقاً. إنه يرى في التاريخ الإسلامي وقائع فتوحات الممالك بينما يغفل تماماً وقائع تسخير القلوب. ويصر تلك الحقبة من التاريخ التي كان المسلمون فيها حكاماً ورؤساء بينما يتعمى عن تلك الحقبة التي كان فيها المسلم داعية إلى دين الله بين عباده.

هذا هو المسلم من الطراز الجديد، ربما يصح القول بأنه مصاب بعمى الدعوة (Dawah blind). وهذا هو السبب الذي جعل المسلم يفهم الأمور الأخرى فور سماعها إلا أنه لا ينتبه إلى قضية الدعوة

56

استخداماً ثانوياً لكلمة الشهيد بل وسيع للمعنى القرآني لكلمة الشهادة.

والشهادة، طبقاً لمفهوم القرآن، هي الإدلاء بالشهادة، والقائم بهذه العملية هو الشهيد. ولكن الشهادة على ماذا؟ إنها الشهادة على حقائق ربانية وإعلام لأهل الدنيا بالخطئة الإلهية المتصلة بالخلق (creation plan of God). ومن يقوم بهذه المهمة فإنه سيمنح منحة ربانية تمكنه من الوقوف أمام محكمة الله بصفة شاهداً رسمياً: ﴿ويوم يقوم الأشهاد﴾ (الغافر: 51)

إن المسؤولية الأصلية الملقاة على عاتق المسلمين اليوم هي أن يصبحوا شهداء لله وتقوم العملية في مرحلتها الأولى عن طريق الإعلان والتبليغ، إلا أنها تتطلب بين حين وآخر توضيحاً بالنفوس في

59

ومصالحها إذا ما عرضت أمامه كأن عقله عاجز عن إدراكها. ولعل النتيجة الفادحة لهذا النوع من العمى الدعوي، هو أن المسلمين لا تتراءى لهم تلك الإمكانيات الدعوية التي يسرها الله لهم. إنهم رغم وقوفهم على شفا إمكانيات عظيمة، اتخذوا الشكوى والاحتجاج شغلهم الشاغل.

### الشاهد والمشهود

إن الدعوة التي تتم في هذه الدنيا يقصد من ورائها استجلاب الشهداء يوم القيامة حين يحضر الجميع أمام الله تعالى، ويحضر كل واحد مع ما كسب من عمل في الحياة الدنيا. ورغم أن الله عليم بعمل كل فرد إلا أنه يستدعي الشهداء الذين سيدلون بشهاداتهم حول سلوك الآخرين إزاء الدعوة التي قاموا بها. إن القرآن يعبر عن هذه العملية بأنها الشهادة، والقائم بها هو

57

سبيل إنجاحها فالذي يضحي بنفسه هو شهيد أيضاً، كما أن غير المقتول يعد من الشهداء، وليس المقتول أعلى مستوى من الشهادة من غير المقتول، إذ لو كان الأمر كذلك لما حُرّم النبي من مثل هذا الفضل، والقرآن ينص على أن النبي كان شهيداً بكل معنى الكلمة.

إن المرء حين ينهض للإدلاء بالشهادة، أو بعبارة أخرى للدعوة إلى حقائق ربانية، يعارضه الآخرون ويوجهون إليه التهم ويحيطونه بأنواع من الأذى، وهو رغم ذلك كله يظل صامداً لا يتزعزع عن موقفه، إنه يواجه الصعوبات المتلاحقة من قبل الآخرين ولكنه يتحدى كل ذلك. فالتضحية في مثل هذه الحالة تعبير عن إيمان قوي ويقين قاطع بمبادئه وأهدافه.

إنه من الخطأ أن نطلق كلمة الشهيد على من يهلك

60

به المسلم ويبدل فيه جهده ثم يطلق عليه اسم الشهادة  
فمصيره الفشل ولا يحقق أي نجاح في حياة المسلمين .  
وإذا لم تفتح - أدلة القرآن والحديث - عيون  
المسلمين، فسوف يفتحها نفخ إسرائيل في الصور.



Goodword Books  
1, Nizamuddin West Market  
New Delhi-110 013, India  
email: info@goodwordbooks.com  
www.goodwordbooks.com

63

يشير إلى أن الله بعث الأنبياء والمرسلين بهدف إعلام أهل  
الدنيا بما يرضى الله: ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد  
الرسول﴾ (النساء: 165). فالذين كانوا دُعاة في الدنيا  
يصبحون شهداء في الآخرة. إنهم سيدلون بشهادتهم على  
المدعوين وفق تجاربهم الدعوية في الدنيا، وسوف يتم  
إصدار الحكم عليهم طبقاً لشهادتهم.

إن النبي ﷺ كان شهيداً بهذا المعنى، فيصبح  
لزماً على من يرغب في اتباعه أن يحتذي حذوه.  
فليس له أن يقتل مع الآخرين بل يلزم عليه أن يتم  
مهمته الدعوية أو عملية الشهادة على الآخرين. إنه  
يلزم على المسلمين أن يعتبروا الآخرين محلاً لتوجيه  
نصائحهم وليس كأعداء لهم.

هذا هو الطريق الذي من خلاله يمكن أن ينهض  
المسلمون من جديد. وما عدا ذلك فكل نشاط يقوم

62

نفسه في تناحر سياسي أو طائفي، كما أنه من الخطأ أيضاً  
أن نطلقه على من يعدم من قبل الحاكم بتهمة قيامه بعملية  
انقلابية لإزاحة الحاكم من السلطة. الشهيد هو من  
يضحي بنفسه في سبيل الدعوة إلى الله، وليس الشهيد  
من يهلك نفسه في تناحر سياسي أو طائفي.

### العمل الأخرى

قد سبق أن قلنا: إن الدعوة إلى الله - طبقاً للقرآن  
والحديث - هي الشهادة نفسها. وقد ورد في القرآن حول  
النبي ﷺ وأتمته، قوله تعالى: ﴿ليكون الرسول شهيداً  
عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ [الحج: 78]. وكما  
ورد في الحديث النبوي: أنتم شهداء الله في الأرض -  
(صحيح البخاري، رقم الحديث: 1367). وقد سميت  
الدعوة بالشهادة للعلاقة الوثيقة بينها وبين الآخرة. إذ أن  
الدعوة في مرحلتها الأخيرة هي شهادة أخروية، فالقرآن

61

### مؤلفات الأستاذ وحيد الدين خان بالعربية

1	الاسلام يتحدى (God Arises)	21	سقوط الماركسية
2	الدين في مواجهة العلم	22	المنهج الرباني
3	الإسلام في القرن ٢١	23	المرأة المسلمة
4	حكمة الدين	24	التذكير القويم في تفسير القرآن
5	الاسلام والعصر الحديث	25	الحكيم (3 مجلدات)
6	العلم على خطى الدين	26	يوميات حرب الخليج
7	مسئوليات الدعوة	27	الدين الكامل
8	نحو تدوين جديد للعلوم الإسلامية	28	ما هو الدين
9	امكانيات جديدة للدعوة	29	التفسير السياسي للدين
10	الشريعة الإسلامية وتحديات العصر	30	مأساة كربلا
11	المسلمون بين الماضي والحال والمستقبل	31	القضية الكبرى
12	رسالة الإسلام	32	عليكم بسنتي
13	نحو بعث اسلامي	33	فلسطين الإنذار الإلهي
14	لا بد من الثورة الفكرية قبل الثورة التشريعية	34	تاريخ الدعوة إلى الإسلام
15	الإيمان والحركة الإيمانية	35	حكمة الدعوة
16	واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام	36	ميدان العمل
17	قضية البعث الإسلامي	37	أخلاقنا
18	تجديد علوم الدين	38	الإتحاد
19	الإنسان القرآني	39	الدعوة إلى الله
20	حقيقة الحج	40	منهج الدعوة
			خطأ في التفسير

64